

القرآن إلهى بمصدره إنسانى بغاياته

إن كل آية من آيات القرآن ، وكل حديث من أحاديث الرسول ، يقصد إلى خير الإنسان على إطلاق دون تفضيل إنسان على إنسان إلا بميزان الأخلاق الإسلامية (النقى) ، ومايستطيع الإنسان تقديمه من الخير لأمة الإسلام (البر) ، وتلك هى القاعدة الصلبة التى أقام عليها الرسول أمة الإسلام .

وقفت فى حديثى السابق عند الشورى التى رأى الرسول ﷺ أن يجعلها قاعدة من قواعد بناء أمة الإسلام من أول الأمر ، فما كاد يعقد العهد والميثاق مع أهل العقبة الثانية على أساس الأخذ والعطاء حتى قرر مبدأ الشورى ، فطلب إلى الثريين أن يختاروا من بين أنفسهم اثنى عشر نقيباً أى ممثلاً لهم ، لكى يشاورهم فى الامر كما امر الله سبحانه وتعالى أمراً صريحاً جازماً لا يمكن التحلل منه فى الآية (١٥٩) من سورة آل عمران .

ورسول الله عندما قرر ذلك كان يعرف أنه بذلك يضع قاعدة أساسية من قواعد بناء أمة الإسلام ، لأن أمة الإسلام هى أمة الناس جميعاً وليست أمة جماعة من البشر دون جماعة والدين كله جاء لخير الناس ، والإنسان إطلاقاً هو محور الدين وجماعته ، والقرآن إلهى بمصدره ، ولكنه إنسانى بغاياته ، فليست فى القرآن آية واحدة لا يراد بها خير الإنسان والناس ، فالله سبحانه غنى عن

العالمين ، وإذا كان الدين عقيدة وشريعة فإن الإيمان بالعقيدة والتزامها خير كل الخير للإنسان ، والشريعة بقسميها - العبادات والمعاملات - هي طريق الخير للإنسان في حياته على الأرض ، والقرآن كله - مهما اختلفت صيغة الخطاب فيه موجه للناس ، أقصد أنه موجه من الله إلى الناس إطلافاً ، ومحمد ﷺ بشر من الناس ورسول إلى الناس .

وفي سورة الإسراء آيات بينات توضح المعنى الذى أريده :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى ، هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ، وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ، قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ .

(الإسراء : ٩٣ - ٩٥) .

وعبارة « يا أيها الذين آمنوا » تتكرر في القرآن عشرات المرات ، وكذلك عبارة « يا أيها النبى » و « يا أيها الملأ » لأن الله سبحانه يخاطب الناس مباشرة ولن تجد الخطاب موجهاً في القرآن إلى « أولى الأمر » أو إلى العلماء أو إلى الملوك أو إلى سراة الناس » ، لأن الإنسان العادى ، الإنسان إطلافاً هو المقصود في القرآن والإسلام كله ، ورسول الله واحد من الناس اختاره الله وزانه بالكمالات وهيأه لحمل رسالته إلى الناس .

وعندما اتجه الرسول إلى عليّة القوم ليكسبهم للدين قال له الله سبحانه :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى ، فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَانْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ . (سورة عبس ١ - ١٢) .

لهذا فإن أمة الإسلام ينبغي أن تكون أمة الناس عامة وهى فى هذا تختلف عن أمة الجاهلية ، أمّا ما قبل الإسلام فتلك كانت أمة الملوك والكهان وعلية القوم ، والأمراء والقادة - عسكريين وسياسيين - والأغنياء والأقوياء ولهذا فسد أمرها وضلت الطريق .

ولهذا طلب رسول الله من رجال يثرب أن يختاروا نقيباهم أو نوابهم لى يشاوروهم فى الأمر ولكى يكون الأمر فى أمة الإسلام شورى .

ومن أكبر الدلائل على ذلك أن الله نزل القرآن بلسان عربى مبين ، أى واضح يفهمه عامة الناس :

﴿ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ . (الشعراء الآيات ١٩١ - ١٩٥) .
وفى سورة المائدة ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (من الآية ١٥) .

والقرآن يوصف فى القرآن نفسه مرة بعد أخرى بأنه « كتاب مبين » وقرآن مبين . . و « الكتاب المبين » ومهمة رسول الله ﷺ توصف بأنها « البلاغ المبين » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ . (هود : الآية ٩٦) .

فالمبين هنا هو « السلطان » وسلطان موسى كان السحر المبين . ويؤيد ذلك قول الله سبحانه فى سورة « المؤمنون » (الآية : ٤٥) . ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ . ومثله قول الله فى سورة غافر (الآية ٢٣) . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ . فقارن هذا بقول الله سبحانه فى أول سورة الزخرف : ﴿ حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . (الآيات : ١ - ٣) .

والأمثلة من الآيات القرآنية هنا كثيرة جداً ، وكلها تؤكد المعنى الذى أقصد إليه هنا ، وهو أن رسالة الإسلام جاءت فى لسان عربى مبين يفهمه الناس كافة . حتى إذا أنت ترجمت معانيه إلى لغة أخرى كانت واضحة لا لبس فيها إذا كان الناقل محسناً لنقل المعانى من اللسان العربى المبين إلى لغة مبينة بلسانه أبا كان ، لأن القرآن كما قلنا موجه للناس على إطلاق .

ولهذا أراد الرسول أن يكون على صلة مباشرة بالأمة فطلب إليها منذ البداية أن تختار الذين سيكونون من أهل الشورى .

وغريب من الأمر أن الذين فهموا رسالة الإسلام عندما استمعوا إليها كان معظمهم من بسطاء الناس فى الجماعة المكية والجماعة المدنية على السواء ، أما كبار القوم وساداتهم وفطاحل شعرائهم فلم يفهموا الرسالة أو فهموها وكبر عليهم أن يعملوا بها .

فهمها عمار بن ياسر ، ولم يكن بقرشى ولا مكى ، إنما هو ابن لاجىء يمنى يسمى ياسراً نزل مكة مع أخوين له : جاءوا من قبيلتهم عنس ليبحثوا عن أخ لهم . فدخل ياسر فى ولاء أبى حذيفة بن المغيرة من بنى مخزوم ، فزوجه أمة من إمائهم تسمى سمية فأنجبت له ابنه عمار ، وكان عمار عندما بدأ رسول الله يدعو ، شاباً من عامة أهل مكة لا يقرأ ، ففهم الرسالة وأسلم هو وزوجه سمية وأسلم أبوه ياسر وأخوه عبد الله بن ياسر ، فتعلم ياسر بعد إسلامه وصار له فى أمة الإسلام شأن .

وفهمها ودخل فيها خباب بن الأرت ، وكان أسيراً فى مكة أصله من العراق وكانت فى كلامه لكنه إذا تكلم بالعربية وكان يعمل قيناً أى حداداً .

وفهمها صهيب بن سنان ، وكان أبوه سنان فارسياً أما هو فقد سباه الروم فنشأ فى بلادهم « فكان أكن » كما يقول البلاذرى . فابتاعه رجل من قبيلة

كلب ، فقدم به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان سيد بنى تيم بن مرة بن كعب ، فاسترقه ثم أعتقه ، « فكان أحمر شديد الحمرة » ، فسمى رومياً لذلك .

وكان صهيب من السابقين الأولين ، وكان في المستضعفين . فلما أسلم كان ينفق ماله كله في إطعام المساكين ، وقد أحبه الرسول صلوات الله عليه وقال فيه : « صهيب سابق الروم » .

وفهمها بلال بن رباح ، وهو حبشى مكى وبيع في مكة ، وكان في أول أمره لا يكتب ولا يقرأ ، وقد أصبح بلال من كبار أمة الإسلام في المدينة وخبره معروف .

وفهمها عامر بن فهيرة وكان مولداً من مولدى الأزد وكان مملوكاً يرعى الغنم لمولاه .

وفي موضع قادم من مواضع هذه الدراسة ستحدث بإسهاب عن عمار بن ياسر وخباب بن الأرت ، وصهيب بن سنان وبلال الحبشى .

وفهمتها وأسلمت زنيرة وكانت جارية فقيرة يَرميها سادة مكة بالجهل ، وكان أبو جهل يتندر بها ويقول « ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم - يريد المسلمين - فلو كان أمر محمد خيراً وحقاً ماسبقونا إليه . أسبقنا زنيرة إلى رشد وهى من ترون ؟ ..

فاستمع إلى طرف من خبر زنيرة هذه يرويه البلاذرى في أنساب الأشراف .

قال « وكانت زنيرة قد عذبت حتى عميت ، فقال لها أبو جهل : إن اللات والعزى فعلا بك ماترين ، فقالت وهى لا تبصره : وماتدرى اللات والعزى من يعبدهما ممن لا يعبدهما ، لكن هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد بصرى

فأصبحت من تلك الليلة وقد رد بصرها ، فقالت قريش : هذا من سحر محمد فاشترى أبو بكر رضى الله عنه جارية بنى المؤمل وزنيرة وأعتقهما .

أجل ، فهمها هؤلاء وغيرهم كثيرون لأن الإسلام خاطب فيهم « الإنسان » خطاباً واضحاً مبيناً .

ولم يفهمها أبو جهل وهو الحكم بن هشام سيد بنى مخزوم ، وكان كاتباً قارئاً وسيداً مهيباً ذكياً ذا مال عريض . ولا نحسب أن أبا جهل كان كما نتصور رجلاً غيباً أحق لا يفهم شيئاً ، بل كان رجلاً لبيباً ، وكان رسول الله ﷺ يرجوه للإسلام ، وقد دعا ربه ذات يوم فقال :

« اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين » . والأول عمر بن الخطاب والثانى أبو الحكم عمرو بن هشام . . ولكن غناه ومركزه في قومه جعله يحسب نفسه فوق الناس ، ولهذا لم يفهم رسالة الإسلام لأنها رسالة للناس . وقرأ مايقوله محمد بن حبيب النسابة عن أبى جهل فى « المحبر » لتعرف حقيقة أبى جهل وتعرف كيف كان ممن (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) .

ولم يفهمها أبو لهب وهو عبد العزى بن عبد المطلب ، وكان كاتباً قارئاً ولكنه كان يرى نفسه سيداً عظيماً ، وكان شديد الغيرة من محمد ابن أخيه ، وكان يكرهه من صغره لأن محمداً كان أميل إلى حمزة وكان عمه أيضاً فحالت غيرته وكرهيته بينه وبين الإسلام . . .

ولم يفهمها اثنان من أكبر شعراء قريش فى زمانها هما :

أبو سفيان بن الحارث ، وكان من أهل قرابة الرسول ، فلما نزلت عليه الرسالة ، حسده حسداً شديداً وأبغضه وأخرجه البغض عن إنسانيته فمضى يذم محمداً بشعره ويقذع فى ذلك .

والثاني هو ضرارين الخطاب وكان شاعراً مجيداً ، وكان من كبار قريش يرى أن هذه الرسالة كان لابد أن تنزل على واحد من عظماء قريش لا على محمد وكان واحداً ممن عنتهم الآيات الكريمة :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ، قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ، وَقَلَّوْا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ، أَهْمُ يَقْسَمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .
(الزخرف : الآيات ٣٠ - ٣٢) .

لهذا طلب محمد إلى رجال يثرب أن يختاروا من بين أنفسهم نقيباً يعرفون الأمة وتعرفهم الأمة لكي يكون الاتصال بينه وبين أمة المدينة مباشراً ، لكي تصل رسالة الإسلام إلى الناس - كل الناس ، ويكون الأمر شورى بين محمد وأصحابه ، والشورى أساس من أسس تنظيم أمة الإسلام ، ووضع القاعدة لها كان الخطوة الثانية التي وضعها الرسول صلوات الله عليه بعد تكوين نواة الجماعة على قاعدة العهد والميثاق والأخذ والعطاء .

والرواية التي روينها التي تقول إن رسول الله ﷺ قال : « اخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم » ، هي رواية ابن إسحاق الأولى ، وابن إسحاق رجل صادق يتحرى ما يقول ، فانظر كيف أضاف الناس بعد ذلك إلى تلك الرواية الصادقة ما يفسد معناها ومغزاها فاستمع إلى ما يقوله البلاذري في أنساب الأشراف « ثم قال رسول الله ﷺ : « إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً ، وإنني آخذ منكم اثني عشر ، فلا يجدن أحد منكم في نفسه شيئاً فإنما يختار لي جبريل فلما سماهم قال : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين ، وجعل أبا أمامة أسعد بن زرارَةَ نقيب النقباء ، ثم قام النقباء واحداً بعد واحد فحمدوا الله وأثنوا عليه

بفضل نعمته ، وما أكرمهم به من اتباع نبيه وإجابة دعوته وتحاضوا على نصرته والوفاء بعهدته وبيعته ، ثم انصرفوا » . وهذا كلام لا يصح ، لأن الفرق بين دعوة موسى ودعوة محمد جد بعيد .

فموسى كان نبياً من أنبياء بنى إسرائيل ، وقد مضى إلى مصر - وهو مصرى - لكي يخرج يهود مصر منها ويقودهم إلى أرض بقية بنى إسرائيل وهم الأسباط أى القبائل وعدتهم اثنا عشر سبطاً ، ومن تقاليد بنى إسرائيل أن يكون لكل سبط رئيس أو نقيب ، فإذا صدق خبر نقيب بنى إسرائيل فإن محمداً ﷺ لم يأت ليؤكد معنى الأسباط أى القبائل بل ليزيله ، ولا محل لنا للاقتداء بموسى ..

أما القول بأن الحواريين كانوا كفلاء على غيرهم فغير صحيح ، فقد كان الحواريون من مستضعفى اليهود الذين آمنوا بوعيسى عليه السلام ، ولم يكونوا كفلاء على بقية بنى إسرائيل ...

وإذن فمن أين أتت زيادة تقليد محمد لموسى وعيسى ؟ ..

من أصحابنا أهل العلم ممن تولوا نقل السيرة إلينا على طريقتهم من التقليد ..

لقد بعث الله محمداً صلوات الله عليه منشئاً مبتكراً مجدداً ليتجدد على يديه شباب دين الله الواحد ، « القيم » أى القائم أبد الدهر ، فيأبون إلا أن يجعلوه مقلداً متبعاً ..

ولهذا فإننى بعد أن أفنيت عمراً فى قراءة التفاسير أصبحت أميل إلى أن أفسر القرآن بالقرآن والسنة وأفسر السيرة بالقرآن وصحيح الآثار ومنهج التاريخ . لأن معظم المفسرين يذهبون بنا مذاهب شتى لا تدرى كيف ولم أتوا بها .

وأضرب لك مثلاً واحداً ، فأنت تعلم أن القضية بين العرب وبنى إسرائيل أن الله سبحانه وتعالى اشتق نبينا - نبي الإسلام - من عترة إسماعيل عليه السلام وإسماعيل هو ابن إبراهيم عليهما السلام من هاجر المصرية وهو الذبيح الذى فداه الله بالكبش العظيم . وقد أعز الله بنى إسماعيل بمحمد وبالإسلام فسادوا الدنيا وأنشأوا ملكاً وحضارة وأمة إسلامية عظيمة كانت شجى فى حلق بنى إسرائيل ، وهذا هو سر عداوة اليهود جميعاً للعرب والمسلمين .

واليهود أو بنو إسرائيل يقولون إنهم أحفاد إسحاق بن إبراهيم جد الأسباط .

وهم لهذا يرفعون إسحاق على إسماعيل ، ويقولون إنه هو الذبيح الذى اختاره الله وفداه وأما إسماعيل فهو عندهم الطريد فى القفار وقومه هم العرب وهم عند اليهود قidar أو تدار فيجىء الطبرى فى كتابه الرسل والملوك وينفق نحو عشرين صفحة فى تحقيق الذبيح وينتهى إلى أنه إسحاق لا إسماعيل .

فهل هذا معقول يا قوم .

غفر الله لأبى جعفر محمد بن جرير . . .



وبايعت الرسول يوم العقبة الثانية امرأتان إحداهما نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف التى اشتهرت باسم أم عمارة الأنصارية ، والثانية أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سلمة من الخزرج .

هل هذه مصادفة ؟ أو أن وجود هاتين الصحابيتين الجليلتين فى هذا الحادث الحاسم كان رمزاً على جانب أساسى من تكوين أمة الإسلام ، لا موضع

للمصادفة هنا فيما نرى فإنه ليس من العادى فى ذلك العصر أن تخرج امرأتان مع قومهما بعد منتصف الليل وتذهبان إلى شعاب الجبال فى أقصى شمال مكة .
لشتركا فى اجتماع كان المفروض من بدء الخليقة إلى ذلك الحين أنه من مشاهد الرجال دون النساء .

لكى تفهم عنى ما أقوله أحدثك عما فعلته نسيبة بنت كعب بن عمرو وهى أم عمارة بعد إسلامها لتثبت للدنيا كلها أن المرأة فى أمة الإسلام الجديدة صنو الرجل وعديلته وقسيمته فى بناء الأمة وتحمل مسؤولياتها ودعنا هنا من أن الشرع جعل حظ الرجل مثل حظ الأنثيين فى الميراث ، فهذا شرع لا مدخل لنا إليه والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار شريعته ، ثم إنه أمر يتعلق بالمال ، والمال ليس مقياساً لكل شىء فى حياة الجماعات ، إنما نحن نشهد هنا بناء أمة فنرى النساء فيها إلى جانب الرجال ، يبايعن ويقمن فى بناء الأمة بنصيب يعدل نصيب الرجال .

وتعال ننظر فيما فعلته أم عمارة نسيبة الأنصارية . فى يوم أحد وفى ميدان الجهاد وهو ميدان الشرف والإيمان وفيه توزن وزنها الصحيح أقدار الناس . . .
قال الواقدى إنها خرجت أول النهار إلى ميدان المعركة ومعها إناء ماء لتسقى الجرحى « فقاتلت يومئذ وأبلى بلاء حسناً فجرحت اثنا عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف » .

وقالت أم عمارة « لقد رأيتنى وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقى إلا نفر « لا يتمون عشرة » وأنا وأبنائى وزوجى نذب عنه ، والناس يمرون به منهزمين ، ورانى رسول الله ﷺ لا ترس معى ، فرأى رجلاً مولياً معه ترس فقال : يا صاحب الترس الق ترسك إلى من يقاتل ، فألقى ترسه ، فأخذته فجعلت أترس عن رسول الله ﷺ . . فأقبل رجل على فرس فضربنى ، وترست

له فلم يصنع سيفه شيئاً وولى وأضرب عرقوب فرسه فيقع على ظهره ، فجعل رسول الله ﷺ يصيح : يا ابن أم عمارة ، أمك .. أمك : قلت : فعاونني عليه حتى أوردته شعوب .

وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يوم أحد يقول : ما التفت يميناً أو شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني ..

هذا قول رسول الله في أم عمارة وهو الصادق الأمين وهي شهادة ذات معنى عظيم بالنسبة لبناء الأمة ، هنا في بناء أمة الإسلام المرأة تحمل نصيباً قدر نصيب الرجل ، فهذا مجتمع جديد إنه مجتمع الإنسان .. والمرأة إنسان كامل في ميزان الأمة الإسلامية كما أراد لها الله أن تبنى على يد الرسول ...

فهل نحن نقبل بعد ما رأينا من أم عمارة وما نعرف عن أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين عائشة وعن أم المؤمنين أم سلمة ، هل نقبل صحة الحديث الذي يردد ويروى حتى أصبح كأنه حقيقة لا شك فيها : النساء ناقصات عقل ودين ؟ . قد يقبلونه بشروط المحدثين ، ولكننا لا نقبله بمنهج المؤرخين ..

ثم إن رسول الله ﷺ لم يؤثر عنه أنه قال : الرجال كوامل عقل ودين ، وهل يثبت عندنا أن الرجال - كل الرجال - كوامل عقل ودين حتى يثبت في - فهمنا أن النساء كل النساء نواقص عقل ودين ؟ إن كنت تريد برهاناً آخر عن وضع النساء في المجتمع الإسلامي الجديد فاقراً مشهد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى كما يرويه ابن سعد في طبقاته ، ثم قل لي بعد ذلك إن كانت النساء نواقص عقل ودين .

إن كل كلمة نقرأها في أخبار بناء أمة الإسلام إنما هي رمز على مبدأ من مبادئ الأمة الجديدة ، والذي حدث أن الأجيال التي جاءت بعد لم تكن قادرة على الإحساس بروح عصر النبوة ، وترجمت السيرة بحسب مفهومها وتصورها ،

وإلا فهل نصدق مايقوله بن هشام في صياغته الناقصة المحرفة للسيرة النبوية عن مبايعة أم عمارة وصاحبتهما للرسول قال : يزعمون أنها قد بايعتا ، وكان رسول الله ﷺ لا يصفح النساء إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن قال : اذهبن فقد بايعتكن .

لقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة لكن الرجال سلبوها إياها في عصور التدهور ، وابن هشام شيخ بصرى مصرى كتب في عصر بداية التدهور وتوفي سنة ٢١٣ أو ٢١٨ هـ - ٨٢٨ - ٨٣٣م وفي تلك السنوات بالذات كان الأمين والمأمون ابنا هارون الرشيد يقتل أحدهما الآخر على عرض من عروض الدنيا وهو الخلافة ، وكان أبو إسحاق محمد المعتصم ابن الرشيد أيضاً يسقط العرب - بناء الأمة - من الديوان .

ولم يكد عهد العقبة الثانية يتم وتوضع الأحجار الأولى في بناء الأمة حتى أرسل الرسول صاحبه مصعب بن عمير داعياً إلى الله ودينه في المدينة ويفقه أهلها ويقرئهم القرآن ، ومصعب بن عمير إنسان ورمز معا . .

كان مصعب بن عمير من أبناء سروات مكة ، فهو من عبد الدار « كان أبواه يجبانه وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب ، وكان أعطر أهل مكة . . . وكان فتى مكة شاباً وجمالاً وسيبياً (أى تيبها) كما يقول ابن الأثير في (أسد الغابة) فلما أسلم تزهد وترك الدنيا وأهل ثيابه ولم تعد له حياة خارج الإسلام . أسلم والرسول في دار الأرقم وتنازل عن ماله كله وهاجر إلى الحبشة بدينه ، ثم عاد وهاجر إلى المدينة وكان صاحب راية الرسول ﷺ في بدر ، ثم استشهد في أحد . .

واقراً معى خبر استشهاده الرائع في موقعة أحد . لقد قاتل وفي يده راية الإسلام حتى قطعت ذراعه فضمهما على الراية حتى تظل عالية ترفرف ، ثم استشهد .

لقد رآه رسول الله ﷺ مسجى على أرض المعركة دون غطاء فتلا قول الله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَبْدُلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب آية ٢٣) .

هذا كان رسول محمد إلى أهل المدينة ولم نعرف في تاريخ دعوة الإسلام داعياً كان أعظم بركة على الإسلام من مصعب بن عمير : في بضعة شهور أدخل معظم أهل المدينة في الإسلام بإيمانه وتفانيه .

وما العبرة من إرسال الرسول مصعباً إلى المدينة داعياً ؟ العبرة أن الأمة الإسلامية لا بد أن يكون لها دعاة على حدودها يمدون بساطها ويزيدون مساحتها ، ويذهبون لذلك حسبة لوجه الله وزهداً في الدنيا وحباً في الله ورسوله ، فهل هذه هي فكرتنا اليوم في الدعوة ؟ .

وهل أمتنا اليوم تشعر بما كان يراه الرسول من وجوب إرسال الدعاة والمصلحين إلى الجماعات الإسلامية الناشئة أو المهتدة بالأخطار واختيارهم على أعلى مستوى ، ويذهبون حسبة لله تعالى .

وهل الدعاة اليوم يخرجون في معاهدهم ويذهبون إلى مجاهل أفريقية وغينيا الجديدة ودواخل بورنيو وإلى جنوبي القبلين حيث يقاتل الإسلام عن وجوده . . أويسارعون في طلب الوظائف في بلاد الريال والدرهم والدينار ؟ وهل الدعوة إلى الإسلام هي أن تسحنفر في الخطب في حى الحسين أوفى حى السيدة زينب أو تحتسب أجرك عند الله وتتوكل عليه وتسير في آثار مصعب بن عمير ؟ ألا ترى معنى أيها القارئ أننا أحسننا الصنع عندما عدنا بالقافلة إلى نقطة البداية لسير من جديد ؟